المهذب من مدارج السالكين

المهذب

من مدارج السالكين

للإمام ابن قيم الجوزية

إعداد

صالح أحمد الشامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمُ التَّهذِيبِ

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلي عليه وعلى آله وسحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد:

يعدُّ كتاب «مدارج السالكين» الذي ألفه الإمام ابن القيم، من الكتب المتقدِّمة التي تحدَّثت عن أعمال القلوب وتهذيب النفوس، وتأديبها بآداب المتقين الصادقين.

وللإمام قَدَمُه الثابتة في هذا الميدان، فقد كثرت كتابته فيه، وتنوَّعت عباراته، وتعددت أساليبه.

وهو يضع خلاصة ذلك كله في «مدارج السالكين» مستنيرًا بهدي الله تعالى مما تضمنته سورة الفاتحة.

يقول في ذلك:

«فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا

من مشكاته ـ القرآن الكريم ـ ولا تستثمر إلا من شجراته.

ونحن ـ بحمد الله ـ ننبه على هذا، بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن وعلى ما تضمنته هذه السورة من المطالب، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين..».

ولكن ابن القيم لم ينفرد في تأليف هذا الكتاب، فقد شاركه فيه الإمام الشيخ أبو إسماعيل الهروي المتوفى قبله بما يزيد عن قرنين من الزمان.

فللإمام الهروي كتاب عنوانه «منازل السائرين» جعله ابن القيم محورًا لكتابه، واستغرق شرحه له قسمًا كبيرًا من «مدارج السالكين».

وهذا ما جعل الكتاب ـ على نَفَاسته ـ بعيدًا عن أيدي عامة المبتدئين من طلاب العلم من أمثالي، لما تستلزمه طريقة الشرح من عدم انسياب العبارة، والوقوف مع «الألفاظ» التي سبَّبها التكلُّف اللفظي والمعنوي، أو مع «المصطلحات» كالفناء، والاتصال، وجمع الوجود، وجمع العين.. التي لم يأتِ لها ذكر في القرآن ولا في السنة، ولا يعرفها إلا النادر من الناس ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ ولا يتصورها أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعها أكثر الخلق لما فهموها ولا عرفوا المراد منها إلا بترجمة.

وهذا الذي أقوله، ليس رأيًا خاصًا بي، ناتجًا عن قصور في الفهم، أو عدم صبر على العلم.. ولكنه واقع يلمسه معظم الذين يقرؤون هذا الكتاب.. ولكنهم قد لا يُصرِّحون بمعاناتهم..

ويسجل لنا الأستاذ صلاح شادي تجربته في هذا الموضوع في كتابه «تأملات في كتاب مدارج السالكين» واصفًا شغفه بالكتاب وقد اندفع راغبًا في قراءته، فيقول:

«فعالجت صفحاته في شوق، ولكن صدمتني وعورة دروبه ومسالكه، فانصرفت عنه..».

وتركه مدة، ثم عاد إليه ليقول: «فبدأت قراءته.. ومع ذلك وجدت عسرًا شديدًا في فهم ما يرمي إليه الإمام الهروي، بل وحتى بعد التبسيط الذي ساقه ابن القيم ..»[1].

فهذا القارئ الفاضل المثقف، أفصح عن معاناته عند قراءته الكتاب، وقد اضطر إلى قراءته عدة مرات كما يقول في تتمة مقدمته.

وأتساءل: وهل كل القراء يمتلكون صبر الأستاذ شادي؟

لهذا رأيت أن أقوم بتهذيب الكتاب، فأقتصر على كلام ابن القيم المتعلق بموضوع الكتاب، بحيث يصل القارئ إلى ما قصد إليه المؤلف من أقرب طريق.

وهكذا ـ وبحمد الله ـ ينضم هذا «المهذب» إلى سلسلة «مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم» ليأخذ مكانه في عقدها، موفرًا على القارئ الكريم الوقت والجهد، سالكًا به طريق السلاسة والوضوح الذي عرف

---

(١) تأملات في كتاب مدارج السالكين، ص٢، الناشر: شركة شعاع للنشر. الكويت.

عن الإمام ابن القيم.

وقد يكون من المستحسن أن يتعرف القارئ الكريم على طبيعة الجهد المبذول.. والغاية المرجوة من عملي في هذا الكتاب.. وهذا ما سأبينه في الفقرات التالية من هذه المقدمة، والله أسأل أن يجعل هذا العمل وكل أعمالي، خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢٢ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ

٢٠٠٢/٨/١م

وكتبه
صالح أحمد الشامي

كتاب «مدارج السالكين»

ألَّف الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الكتاب تحت عنوان: «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

ويقع الكتاب في ثلاثة مجلدات:

وقد بدأ بالحديث عن سورة الفاتحة كمدخل للبحث، واستمرَّ هذا الموضوع حتى الصفحة (١٢٢) من الجزء الأول، حيث بدأ الكلام عن المنازل التي هي موضوع الكتاب.

وطريقته في عرض المنازل:

أن يتحدث عن «المنزلة» محل البحث، فيتكلم بما ييسره الله له، ويستوفي ما يتعلق بالموضوع.

ثم ينتقل إلى ما قاله شيخ الإسلام الهروي في كتابه «منازل السائرين» فيتناوله بالشرح جملة جملة، وفي بعض الأحيان كلمة كلمة، حسب ما يقتضيه المقام، وفي بعض الأحيان قد يستكمل ما أراد قوله أثناء شرحه لكلام الهروي.

ونحن ـ في الحقيقة ـ عندما نقرأ في كتاب «المدارج» نجد أنفسنا أمام كتابين في موضوع واحد، لمؤلف واحد:

أما الأول: فهو كتبه المؤلف عن المنازل، وهو مدارج السالكين.

وأما الثاني: فهو شرح كتاب «منازل السائرين».

ونتج عن ذلك:

١ ـ التكرار، فالموضوع الواحد يعرض مرتين، وإن اختلف الأسلوب.

٢ ـ أصبح الكتاب في ثلاثة مجلدات، وكان يكفيه مجلد واحد.

٣ ـ تشويش فكر القارئ وبخاصة عندما تكون وجهات النظر مختلفة بين الشيخين.

٤ ـ تقطيع الموضوع ـ في غالب الأحيان ـ بسبب طريقة الشرح تارة، وبسبب الاستطرادات تارة أخرى.

أكتفي بهذا الوصف المجمل للكتاب.

الهروي وكتابه «منازل السائرين»:

أما الهروي: فهو شيخ الإسلام، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري، الحنبلي، الصوفي، المحدِّث، الأصولي.

ولد بمدينة «قندهار» سنة (٣٩٦هـ)، وتوفي بمدينة «هراة» سنة (٤٨١هـ).

قال في شذرات الذهب: «كان قذًى في أعين المبتدعة، وسيفاً على الجهمية، وقد امتحن مرات، وصنف عدة مصنفات، وكان شيخ خراسان في زمنه غير مدافع ..».

وأما كتابه فهو «منازل السائرين إلى الحق المبين»، وهو الذي شرحه ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين».

وهو كتاب صغير، وضعه على طريقة المتون، بل هو كتيب من حيث حجمه وعدد صفحاته.

وقسمه إلى مائة منزلة، يتدرج بها السائر .. وكل منزلة قسمت بدورها إلى ثلاث درجات، فالأولى درجة العامة، وهي لعامة المسلمين، والثانية درجة الخاصة، وهي لخاصة المؤمنين، والثالثة درجة خاصة الخاصة وهي للواصلين.

وإذًا، فنحن في هذا الكتاب أمام شرح لثلاثمائة درجة، وبيان مواصفات وحدود كلٍّ منها.

وبسبب كثرة الدرجات، وقلة الكلمات الواصفة لكل منها، اضطر إلى كثير من التكلف اللفظي والمعنوي، والتبست عباراته على قارئيه، وشردت عنهم معاني ألفاظه .. فجانَبَ الكاتبُ البساطةَ والوضوح اللازمين في مثل هذا الموضوع، مما دفع بعضهم إلى رميه بالتشبيه والتجسيم، وهو من ذلك بريء.

ابن القيم و«منازل السائرين»:

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الإمام ابن القيم كان معجبًا بالشيخ «الهروي» من حيث كونه واحدًا من فقهاء الحنابلة، ومن حيث سيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاده أهلَ البدع الذي لا يشق له

فيه غبار، ومواقفه المشهورة في نصرة الله ورسوله ﷺ.

وقد وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «عمله خير من علمه»، وقد علَّق ابن القيم على قول ابن تيمية قائلًا: «وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله»[1]. وقال ابن القيم أيضًا: «وصاحب المنازل ـ رحمه الله ـ كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضادًا للجهمية .. الذين سعوا بقتله إلى السلطان مرارًا عديدة، والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بَهْتِ الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث ..»[2].

وقال: «وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبيِّن مرتبته من السنة، ومقداره في العلم، وأنه بريء مما رماه به أعداؤه والجهمية من التشبيه والتمثيل»[3].

هذه صورة الشيخ القائمة في ذهن الإمام ابن القيم.

فلما رأى النقد الموجه إليه بسبب غموض عباراته، ووقوعه في بعض الأخطاء والأوهام التي روَّج لها المبتدعة ووجدوها منفذًا للنيل منه .. رأى من واجبه الذبَّ عن عرض هذا الشيخ صاحب المواقف من نصرة الله ورسوله.

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٣٩٤، دار الكتاب العربي، تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٦٤.

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٨٧.

ولا يكون ذلك إلا بشرح الكتاب وبيان محاسنه، وهو الجانب الذي لم يذكره أعداؤه، فبادر إلى ذلك مبينًا وجهة نظر الشيخ، شارحًا غامض كلامه، مبينًا مبهمه ..

ذلك هو الدافع ـ فيما أرى والله أعلم ـ إلى شرح الكتاب.

ولكن ابن القيم لم يكن هدفه من ذلك تبرير الأخطاء، والإغضاء عن الأوهام، بل بيان الحق والصواب، ويحسن بنا أن ننقل بعضًا من عباراته في هذا الصدد.

فمن ذلك قوله: «شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحبّ إلينا منه، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله ..»[1].

وقال: «هذا حاصل كلامه محررًا مقررًا، وهو من منكر كلامه»[2].

وقال: «يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل ..»[3].

وقال: «ولعمر الله، لقد كان في غنية عن هذا الباب، وعن هذه التسمية، ولقد أفسد الكتاب بذلك..»[4]. وهذا في الكتاب كثير..

وللإمام ابن القيم موقف ثابت من تقسيم الشيخ كل منزلة إلى ثلاث

(١) المرجع السابق: ٢/ ٣٧.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٦٢.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٩.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٤٠٠.

درجات، الثالثة منها لخاصة الخاصة، وهي التي تؤدي عند الشيخ الهروي إلى منزلة الفناء، وابن القيم يختلف معه في هذه القضية، ولا يرى الفناء غاية المطاف.. بل وينتقد منزلة الفناء التي كانت سببًا في انحراف كثيرين.

ويقول ابن القيم في بيان ذلك: «والشيخ ـ رحمه الله ـ ممن يبالغُ في إنكار الأسباب، ولا يرى وراء الفناء في توحيد الربوبية غاية، وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب يرجع إلى هذين الأصلين، وقد عرفت ما فيهما وأن الصواب خلافهما ..»[1].

ويقول: «ولكنه ـ رحمه الله ـ كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات، فإنه لا يقدم على الفناء شيئًا، ويراه الغاية التي يُشَمِّرُ إليها السالكون، والعَلَم الذي يؤمه السائرون، واستولى عليه ذوق الفناء وشهود الجمع، وعَظُمَ موقعه عنده، واتسعت إشارته إليه، وتنوعت به الطرق الموصلة إليه، علمًا وحالًا وذوقًا، فتضمن ذلك تعطيلًا من العبودية باديًا على صفحات كلامه، وزِانَ تعطيلِ الجهمية لما اقتضته أصولهم في نفي الصفات»[2].

إن مناقشة المؤلف للشيخ الهروي في درجة خاصة الخاصة في كل منزلة قد شغل مساحة لا بأس بها من الكتاب[3].

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٥١٩.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٢٦٤.

(٣) انظر ـ على سبيل المثال ـ فقرة «هل للخاصة توبة خاصة بهم؟» في منزلة التوبة، ص٨٦.

يضاف إلى ذلك مناقشاته له في بعض ما ذهب إليه، إذ قد يستغرق مناقشة جملة وتصويبها أو بيان خطئها والصواب في المسألة العدد من الصفحات[1] تلك هي صورة العلاقة بين الإمام وبين كتاب «منازل السائرين».

وإذا كان كتاب «منازل السائرين» في وقتنا هذا ليس محل اهتمام القراء، ولا يهمهم أمرُ حلِّ معضلاته، أو تصحيح أوهامه، فلمَ يضيعون بذلك أوقاتهم؟

ثم إن الكتاب الآن ليس متداولًا بين الأيدي، والدواعي التي دفعت الإمام ابن القيم لشرحه والدفاع عن مؤلفه، لم تعد موجودة .. لهذا كان العمل على تهذيب «المدارج» أمرًا مفيدًا.

فكرة تهذيب «المدارج»:

إن الأمور السابقة ـ يضاف إليها الاستطرادات المعهودة في أسلوب ابن القيم ـ تجعل القارئ مشتت الفكر بعض الأحيان، غير قادر على جمع أطراف الموضوع الواحد.

وهذا ما دفعني إلى التفكير في تهذيب هذا الكتاب بحيث يقتصر البحث فيه على:

---

(١) ومن أمثلة ذلك مناقشة قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» حيث استغرقت أكثر من عشر صفحات من (٢/ ١٤) إلى (٢/ ٥٢).

١ ـ ما كتبه الإمام ابن القيم بشأن «المنازل» بعيدًا عن الشرح المتعلق بكتاب الهروي.

٢ ـ الاقتصار على المادة المتعلقة بعنوان الكتاب وموضوعه، بعيدًا عن كل الاستطرادات الواردة فيه.

وبهذا تتحقق في الكتاب «طريقة المتقدمين» التي أثنى عليها الإمام ابن القيم عندما قال:

«فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم: كلامًا مطلقًا في كل مقام مقام ببيان حقيقته وموجبه، وآفاته المانعة من حصوله..».

ولعل سبب عدم التزام الإمام بها، هو ارتباطه بشرح كتاب «المنازل» الذي سلك فيه مؤلفه طريقة المتأخرين.

عملي في الكتاب:

الموضوع الرئيس في كتاب «مدارج السالكين» هو الكلام على «منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

فكان لا بد من دراسة كل منزلة على انفراد، واستخلاص ما قاله ابن القيم فيها، وجمعه بعضه إلى بعض بحيث يكون متتابعًا يسير القارئ معه، دون أن تعترضه عوائق الاستطرادات أو الشرح والاختلاف.

وقد تم ذلك ـ بحمد الله تعالى ـ بعد صبر على العمل، إذ كان عليَّ ـ في كثير من الأحيان ـ أن أستخرج كلام ابن القيم من ثنايا شرحه

للمنازل، لأضمه إلى كلامه الآخر الذي يبدأ به الموضوع عادة، بعد تنقيته من الاستطرادات..

وبهذه الطريقة تم الابتعاد عن «المصطلحات» التي وردت في «المنازل» والتي ينتقدها ابن القيم أشد النقد، والتي «لا يعرفها إلا النادر من الناس، ولا يتصورها أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعها أكثر الخلق لما فهموها ولا عرفوا المراد منها إلا بترجمة»[1].

وقد عملت جهدي على أن تكون الموضوعات واضحة المعالم، مقسمة إلى فقرات، وقد أضع لكل فقرة عنوانًا، عندما أجد ذلك مفيدًا.

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول: وعنوانه: الكلام على فاتحة الكتاب.

وقد جمعت فيه كلام المؤلف عن هذه السورة الشريفة، وجعلته في سبعة فصول.

الباب الثاني: وعنوانه: منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

وفيه الموضوع الذي عنون المؤلف الكتاب به. وقد مهدت للمنازل بفصلين:

جمعت في الأول منهما كلام المؤلف عن المنازل وعددها وتقسيماتها.

وفي الثاني: جمعت كلام المؤلف فيما يكون قبل السير من الاستعداد وتهيئة الأسباب.

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٤٣٦.

وتم بعد ذلك عرض المنازل واحدة بعد الأخرى مما اعتمده الإمام ابن القيم ورضيه، أما ما لم يعدّه الإمام منها كـ «الفناء» و«الهيمان» و«الحزن» .. فلم أذكره.

الباب الثالث: وعنوانه: مختارات.

وفيه عدة موضوعات ذات صلة بموضوع الكتاب، جاءت ضمن استطرادات المؤلف، فرأيت أن أضعها في هذا الباب إتمامًا للفائدة.

هذا ما يسر الله تعالى عمله من أجل تقريب هذا الكتاب القيم. ولم يكن عملي فيه الاختصار، فليس ما أقدمه اختصارًا للأصل، ولكنه انتقاءٌ لمادةِ الكتاب المرتبطة بعنوانه، وجمعٌ لها، وترتيب.

وبهذا يكون القارئ أمام كتاب «مدارج السالكين» الذي وضعه ابن القيم ولم يشاركه فيه أحد.

والخيرَ أردت، فأرجو أن أكون ممن اجتهد فأصاب، والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

❐❐❐

المهذب
من مدارج السالكين

للإمام ابن قيم الجوزية

٦٩١ - ٧٥١هـ

إعداد

صالح أحمد الشامي

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوثُ بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغيِّ والرشاد، والشك واليقين.

أنزله لنقرأه تدبُّرًا، ونتأمله تبصُّرًا، ونسعد به تذكُّرًا، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّق أخباره ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكَم من بين رياضه وأزهاره.

فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أراد معرفتُه، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونورهُ المبين الذي أشرقت له الظلماتُ، ورجمته المهداةُ التي بها صلاحُ جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظمُ الذي منه الدخول، فلا يغلقُ إذا غُلِّقت الأبواب.

وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنُّزُل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تُقْلَع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما